التراث والثقافة : جدل المفاهيم

أ. فاروق شوشة(*)

□ **د. فيصل الحفيان** (رئيس الجلسة) :

أنا البَحْـرُ في أحشـائه الدُّرُّ كامِنٌ
فهل ساءَلوا الغَوَّاصَ عن صَدَفاتي

لن أقولها ولن أستطيع بطريقة الأستاذ فاروق شوشة، لكن الرجل والبيت متلازمان، ترى الرجل فتذكر البيت، وتسمع البيت فتذكر الرجل ! اختار بيت حافظ إبراهيم ليكون علامة على برنامجه الإذاعي الشهير «لغتنا الجميلة» وكأنه يستدعي به ويستحضر عشقه القائم أبدًا للعربية. وفي قلب اللغة يأتي الشعر، والشعر - كما نعلم - ديوان العربي، والشعر - كما نعلم أيضًا - هو الذي يعيد تخليق اللغة.

نحن - كذلك - نريد أن نستدعي ونستحضر التُّراث؛ لأنه سيعيد - شأنَ الشعر واللغة - تخليق حياتنا الثقافية سواء بسواء .

يحدثنا شوشة اليوم عن التُّراث والثقافة، وعن أسئلة التُّراث التي تتردَّد اليوم كما لم تتردَّد من قبل : تُرى ما هي العلاقة بين التُّراث والثقافة، وما هي تلك الأسئلة الخطيرة ؟ ذلك هو موضوع هذه المحاضرة الختامية.

(*) أمين عام مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

أحسب أن الفرق بين المفهومين يتبين إذا ما عرفنا أن التُّراث في جوهره ثقافة، لكنها ثقافة قديمة، أما الثقافة فهي بإطلاقنا الحالي الأدب بالمفهوم (التُّراثي) نستذكر معًا ما قاله ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ): الأدب الأخذ من كل فنٍّ بطرف.

بين الثقافة والتُّراث جدل دائم، ولعل الوقت قد حان لكي نسعى بكل جهد لنحوِّل التُّراث إلى ثقافة، وذلك إنما يتأتى باستدعائه وتوظيفه توظيفًا إيجابيًّا، ونحوِّل ثقافتنا الحالية إلى تراث؛ تراث تتوارثه الإنسانية، وذلك إنما يتأتى بجعلها ثقافة أصيلة ذات خصوصية، وتملك القدرة على الحياة الطويلة.

لن أُطيل عليكم حتى لا أعْـدُوَ على وقت المحاضرة وعلى الأستاذ المحاضر، فليتفضَّلْ.

*

هذه الكلمة لا تحمل اسم «التُّراث والثقافة» كما أشار د. فيصل الحفيان، بقدر ما تحمل تساؤلات أو أسئلة عن التُّراث عِشتُها وما زِلْتُ أحياها، وأحب أن أشارككم فيها. وقد يكون البحث عن إجابات لهذه الأسئلة متوفِّرًا في هذا الملتقى، أو في جلساته التي سبقت، وقد يكون أيضًا معلَّقًا في انتظار إجابات قادمة، وبخاصة أن هذا الملتقى هو الحلقة الأولى في المشروع الطَّموح الذي يستهدفه معهد المخطوطات العربية.

اسم الأستاذ أمين الخولي ذُكر في الجلسة السابقة، وأنا أذكره لأنه صاحب مقولة تتصل بما أنوي إثارته من أسئلة، فإنه كان يقول: الوارث الرشيد هو الذي يبدأ بإحصاء التَّرِكة، والتَّركة في مجال التُّراث هائلة وضخمة؛ لأن إحصاء هذا التُّراث بعد كلِّ هذه القرون التي قضَيْناها معه

ما يزال أمرًا لا نستطيع القطع به، وما زِلْنا في خِضَمِّ عشرات الأُلوف أو مئات الأُلوف من المخطوطات نتطلع إلى إنجاز عملية الحَصْر أولًا، ثم النظر والتفسير والتأويل والنقد العقلي ثانيًا.

ومن ثَمَّ نحن بوصفنا ورثةً لهذا التُّراث لم نَقُمْ بالشرط الأول في وراثتنا لهذه التَّرِكة الهائلة النفيسة، وهو البدء بإحصاء التُّراث.

الأمر الثاني أصوغه في صيغة تساؤل هو: لماذا كلَّما تكلَّمنا عن التُّراث تكلَّمنا عن «الآخَر»، نحن نتكلَّم عن التُّراث بوصفه «خارجَنا» أو شيئًا في خارجنا نستدعيه، نتأمَّله، نقلِّب فيه، ثم نُصدِر أحكامنا بالانتماء أو بعدم الانتماء، باهتمام أو بعدم اهتمام، بالمقارَنة مع «آخَر» آخَر، أو بعدم المقارنة. كيف أعُدُّ التُّراث «آخَر» وهو «أنا»، التُّراث هو «أنا» وهو «أنتم»، فلا ينبغي في إطار هذا التساؤل أن نتكلَّم عن التُّراث بوصفه أمرًا خارجيًّا (شيئًا آخَر)، وكأننا نُصِرُّ بين كلِّ أمم العالَم وشعوبه أن نقول: إن في حياتنا الفكرية آخَرَيْن: الآخَر الأول هو تراثنا، والآخَر الثاني هو تراث الإنسانية كلُّه، هذا تساؤل أول.

الأمر الثالث نابع من الموقفين: موقف أولئك الذين يَنْفون ويَدْعون إلى القطيعة، وأولئك الذين يقفون موقف المعارَضة ويقولون: إن في القطيعة إلغاءً للهوية وللانتماء . وأصوغه - أيضًا - في صيغة تساؤل: هل يملك إنسان ما أن يقتطع جزءًا من نفسه ؟ هل أستطيع أن أنفي وأن أُقتطِعَ وأن أُحدِثَ هذا الإلغاء الذي هو مصطنَع وكاذب، وأدَّعي أنني مؤمن ببقية ما استبقيتُ، وأن ما نَفَيْتُه عني لم يكن شيئًا منِّي، ولم يكن من بِنْيتي العضوية، وعليَّ أن أتقدَّم إلى الدنيا بجزءٍ من تكويني بعد أن ألغَيْتُ جزءًا آخَر من هذا التكوين ؟

إذا كنت «أنا التُّراث»، وإذا كان التُّراث هو مكوِّني وهو حياتي وهو تطوُّري ونُموِّي، فهل أملِك أن أدَّعيَ عكسَ هذا الكلام؟ وبخاصة أنني مع هذا التُّراث أعترف بأشياء واضحة: التُّراث منحني لغة، أعطاني لسانًا، وبدون هذا التُّراث لا لغة ولا لسان. التُّراث في تكوينه لي وتشكُّلي منه - أعطاني عقلًا وفكرًا، به أتأمَّل ذاتي، وأتأمَّل الآخَر الذي هو البعيد عني، وبهذا الفكر، بهذا المُشْكِل أستطيع أن أقترب وأن أبتعد، وأن آخُذَ وأن أدَعَ.

إذن بدون هذا التُّراث كيف يكون العقل؟ وكيف يكون الفكر؟ وكيف يكون موضعه من تراث الإنسانية كله؟ لكي تكون ذا بصيرة وذا نظر نافع.

الذين قرأوا هذا التُّراث في عصورنا الأخيرة، ظنًّا منهم أنهم سيحاولون بمناهج مختلفة من القراءات ومن الرؤى أن يخرجوا بحسم الإشكالية التي تمثَّلت لهم، وهي قد تمثَّلت لهم كما أقول؛ لأنهم ظنُّوا التُّراث شيئًا غير ذواتِهم، فأصبحوا يرونه وهم منفصلون عنه، ومن ثَمَّ عندما أصبح التُّراث هذا الآخَر الذي يُشَرِّحونه ويحكمون عليه، فإن رؤاهم على اختلاف مناهجها لم تقرِّبهم من الحقيقة في ما أزعُم.

وهناك مَن قدَّم قراءة انتقائية، والقراءة الانتقائية تبعُد وتقرُب، وتنتقي وتختار في إطار ما أسميناه «الأصالة والمعاصرة»، وعلى ذكر الأصالة والمعاصرة أنتهز الفرصة لأقولَ: إن من إشكاليات العقلية العربية، وهي إشكاليات تتورَّم مع الزمن، أننا وقعنا في شَرَك الثنائيات؛ فوضعنا الدين في مواجهة العِلْم، والآخرة في مواجهة الدنيا، والعقل في مواجهة النَّقْل، والغرب في مواجهة الشرق، ونقيس على هذا ثنائيات عديدة، لكن المشكلة لم تقف عند حدِّ إثارة مشاكل عقلية وقومية وإنسانية بسبب هذه الثنائيات،

لكننا أسرفنا في جَعْلها أقطابًا، وجعلها أقطابًا - إذن - يعني أنه ليس هناك مشترك عقلي.

إذن إما أن أكون مع هذا القطب أو مع هذا القطب، أنا مع العقل أو مع النَّقْل، مع التُّراث أو مع المعاصرة، أنا مع كذا ولستُ مع كذا، وكأن الأمر يحسمه هذا اليقين القاطع الذي لا يرى في البِنْية التحتية لهذه الأقطاب مجتمِعة ما هو مشترَك، ولأنَّه سيؤدي إلى تأمُّلِ تراثِي إذا تأملته حيًّا سيؤدي إلى تأمُّلِه منقطعًا عن سياق التُّراث الإنساني، نحن إذا تكلمنا عن التُّراث فنحن نحبسه في قالبه القومي، ولا نراه في حجمه الحقيقي ساطعًا بين تراث الإنسانية ككل، في هذه الحالة سنقدِّر له مكانه ومكانته إنِ استطعنا أن نقوم بهذا الدَّوْر، لكن هذه الثنائيات والوَلَع الشديد بها هو الذي جعلنا نتراوح بين هذه الأقطاب.

القراءة الأولى كما قلت هي قراءة انتقائية تحاول أن تقرِّر (أن توفِّق) بين ما سمِّي الأصالة وما سمِّي المعاصَرة، بين الماضي والحاضر كما نتصوَّر، تحاول التوفيق بين ثقافة مَوروثة وثقافة العصر الذي نحياه، تحاول الكشف بين المعقول واللامعقول في تراث هذه الأمة، بين عناصر سالبة - من وجهة نظرها - لم تَعُدْ صالحة للعصر ، وبين عناصر مُوجَبة يمكن أن نحتكم إليها في حلِّ مشكلاتنا المعاصرة.

وأعتقد أن محاولات التوفيق لم تنجح في نهاية الأمر في أن تجعل الهيكل الواحد عضويًّا؛ لا تعرف فيه متى ينتهي التُّراث ولا متى تبدأ المعاصرة، ولو وضعنا أيدينا على خطوط فاصلة بين ما يعدُّونه تراثًا وما يعدُّونه معاصَرة، لحوَّلْنا هذا الكيان الحيَّ والنسيج المتلاحم إلى ميِّتٍ تَقَطَّعَت أجزاؤه واندثرت أعضاؤه.

القراءة الثانية كانت - كما نسمِّيها - القراءة التثوُّرية؛ نسبةً إلى فِعْل الثورة والتثوير، وهي قراءة كانت تهدف إلى تقديم رؤى جديدة، تنقل من الثابت والاتِّباعي إلى المتحوِّل والإبداعي، تنقل من الضرورة إلى الحرية، تريد أن يُعطى العصر دفعة جديدة نحو التقدُّم؛ بهدف التغيير والتطوير والسيطرة على مقدَّرات ما نعيش فيه.

القراءة الثالثة ادَّعت لنفسها أنها قراءة التنوير، وكلمة التنوير كلمة شاعت كثيرًا في العقود الثلاثة الأخيرة، وبدأ استخدامها على أن الهدف منها هو مواجهة الظَّلَامية، هناك فكر جديد يتذرَّع عادة بأن ركائزه من ثقافات غربية.

إنني أدعوكم إلى هامش خاص لنتأمل معًا مشروعين كبيرين في تاريخ هذا الوطن؛ مشروعًا أُطلق عليه مشروع النهضة، بدأ بمنجَزات الرُّواد الأوائل، مع بعثة رفاعة رافع الطهطاوي (ت١٨٧٣م)، ثم من أبنائه أمثال: طه حسين (ت١٩٧٣م) وأحمد أمين (ت١٩٣٦م) وأمين الخولي (ت١٩٦٦م) والعقاد (ت١٩٦٤م)، وعزام (ت١٩٥٩م)، والعشرات.

وكانت هذه النهضة تعني قيام الدستور وقيام الجامعة، والتوسُّع في التعليم، وتعليم المرأة وعملها، ونشر المناخ الديمقراطي، والدعوة إلى دار الكتب ودار العلوم، وسمِّي هذا المجال مشروع النهضة.

وفي العقود الأخيرة من القرن العشرين بدأنا نسمع عن المشروع البديل؛ مشروع التنوير، ومشروع التنوير كان واضحًا من البداية أنه مشروع مستجلَب تمامًا، في الوقت الذي كان فيه مشروع النهضة يحاول الإفادة من ثقافات أجنبية، لكنه يقدِّمها للمواطن ويمارس الفعل الثقافي بها، وقد اكتسبت عروبتها وهويَّتها من طبيعة هذا الواقع الذي يعيشه.

طه حسين لم يكن يدَّعي أنه يطبِّق مذهبًا فرنسيًّا أو أوروبيًّا في النقد، لكن الذين آمنوا بالبِنْيوية والتفكيكية وما بعد الحداثة... إلخ، كانوا صرحاء في أن يقولوا: أنا ناقد كذا، أنا أعبِّر عن المذهب الفلاني، أنا أُطبِّق كذا... إلخ.

محمد مندور كان يتحدث عن النقد المنهجي عند العرب، ليعيدَنا إلى الأصول والركائز الأُولى التي قام عليها علم البلاغة والنقد الأدبي في المَوْروث الثقافي العربي، أما الجيل الذي تبنَّى مشروع التنوير فيحدِّثنا عن أشياء لا جذور لها في التُّراث الثقافي العربي.

لماذا نجح مشروع النهضة؟ ولماذا فشل مشروع التنوير؟

أقول هذا بمناسبة الكلام عن القراءة التنويرية، وأذكر عددًا من الأسماء لأُشيرَ إلى بعض ممثِّلي هذه القراءات الثلاثة، أبدأ بزكي نجيب محمود، وأنتقل إلى محمد عابد الجابري ومحمد أركون، ثم أتكلَّم عن نصر حامد أبو زيد، وآخرين مُجايلين لزكي نجيب محمود وللجابري وأركون أو لجيل نصر أبو زيد. هذه الأسماء وغيرها تُمثِّل القراءات الثلاث التي كانت تنتهي دائمًا إلى ما يسمَّى «تساؤل التفسير والتأويل».

إذن لا بد من أن نبدأ - في رأيي - من النقطة الصحيحة التي لا ترى التُّراث «خارجَنا» وتراه «فينا»، والتي تراه «نحن» حين ننمو نموًّا عضويًّا طبيعيًّا، فنتشرَّبه لغة ولسانًا وفكرًا وعقلًا، وبصرًا يتقلَّب في جوانب شتَّى ودوائر أوسع من المعرفة، وصولًا إلى ما نحن فيه من ثقافة الحاضر، وبذلك يصبح النسيج الحي لنا مزيجًا من هذا كله، ويصبح ما يسمَّى «المعاصَرة» طبيعةً في هذا البناء وليس نَفْيًا لما تمَّ بناؤه ولا مُغايَرة لما أُقيمت أُسسه ودعائمه في السابق.

هذا لا يُلغي - بالطبع - حاجتنا إلى سؤال: هل نجحنا نجاحًا حقيقيًّا في تكوين ما يسمَّى «العقل النقدي» الذي يتصدَّر لمُساءَلة كبرى تبدأ بتصحيح نظرتنا إلى التُّراث، والبحث في دوره في داخلنا قبل أن نسأل عن دورنا فيه. ثم الخلوص إلى الوضع الحيِّ الصحيح الذي يجب أن نتأمَّل أنفسنا في إطاره عندما نجيب على هذا السؤال الكبير: مَن نحن، وماذا نريد؟

هذا اللقاء يثير «مستقبل التُّراث»، ومستقبل التُّراث هو مُستقبَلنا نحن، مستقبل التُّراث ليس قضية ثقافية وليس قضية تكمن الإجابة عنها في المراجع، إنما الإجابة على هذا السؤال في حياتنا نحن الراهنة. لا مستقبَل لهذا التُّراث دون أن يكون لنا كأُمَّة عربية مستقبَل، فعندما نُفكِّر في هذا المستقبَل التُّراثي الثقافي الفكري المعرفي، القومي، الإنساني - لا بد أن نسأل عن دَوْرَنا نحن في صُنع الإنسان الذي هو بعض التجليات الحقيقية لهذا المَوْروث الثقافي.

بعد نَكْسة عام ١٩٦٧ رأينا مَن يقول: سبب النكسة أنَّا كُنا نَسيرُ وأعناقُنا إلى التُّراث، أعناقنا متجهة إلى الوراء، ووجدنا مَن يقول: لا سبيل إلى الخلاص إلا بأن تكون أعناقنا إلى الأمام، إلى العصر، وأصبح التُّراث كما نتداوَلُه مُتَّهَمًا بأنه سبب الهزيمة، وأن الخلاص منه والقَطيعة معه هي بداية الصعود إلى الصفحة الأخرى، إلى الانتصار.

سأشير إلى جزئية صغيرة تتعلَّق ببيت حافظ إبراهيم الذي استهل د. فيصل الحفيان هذه الجلسة:

أنا البَحْرُ في أحشائه الدُّرُّ كامِنٌ
فهل ساءَلوا الغَوَّاصَ عن صَدَفاتي

منذ التحقت بالإذاعة المصرية، أي منذ عام ١٩٥٨، وأنا أحلُم بتقديم «لغتنا الجميلة»، ولما حدثت النَّكْسة استدعاني رئيس الإذاعة، وقال لي: لقد قدَّمتَ لنا أفكارًا عن الإبداع العربي والتُّراث العربي والثقافة العربية عدَّة مرات، وكنا نرفض الاستجابة على أساس أن مثل هذا البرنامج سوف يكون جَهْمًا وغليظًا وثقيلَ الوَقْع على قلوب الناس وعلى عقولهم، ولن يُطيقَه السامعون. وبعد عدَّة أسابيع من النكسة قال لي: - وكأنه لا يعبِّر ليس عن رأي موظَّف كبير في مؤسسة، ولكنْ عن رأي قطاع كبير من الناس - : لقد هُزمنا يا بُنيّ لأننا ابتعدنا عن هذا التُّراث، أريد من برنامجك أن يُعيد وَصْلَنا بهذه الجذور. وكان البرنامج إحدى فضائل النكسة الإذاعية - إذا كان للنكسة فضائل - لأنه قد اضطرَّ المسؤولين في الإذاعة إلى أن يُدْرِكوا أنه قد آن الأوانُ لنعيد نسج حياتنا بهذا الموروث الهائل، الذي عندما قطعنا صِلَتَنا به كنا عُرضة لهذه الهزيمة الساحقة.

عندما حدثت الهزيمة ماذا حدث؟ أحسَسْنا بضغط التَّبعية الثقافية والفكرية وأسْرِها، التي كانت لدينا للغرب وللثقافات وللفكر الغربي، فعُدْنا إلى التُّراث عَوْدة محمومة، هذه العَوْدة شابَتْها المُبالَغة، وأنا لا أتحدَّث الآن عن التُّراث بالمعنى الدِّيني، ولكن أتكلَّم أساسًا عن المكوِّن الفكري والثقافي.

عُدْنا إليه في لغة تشبه التقديس، ونَسينا أنه مُنتَج إنساني، وما دام منتَجًا إنسانيًّا فهو قابِلٌ للمساءَلة وقابل للنَّقْد وقابل للحذف وقابل للبناء عليه وللتطوُّر.

هذه العَوْدة المحمومة صبغت كتاباتِ كثير من الكُتَّاب وصَيْحات كثير من الداعين إلى الإفادة من نتائج النكسة إيجابيًّا في ما يسمَّى «التُّراث»، وأصبحت صَيْحة التُّراث هي الصَّيْحَة الرئيسة الغالِبة على منطق ما سمَّيْناه «الصحوة».

أقول: إن هذا الموقف لم يكن في جوهره إلَّا ردَّ فعل لشعورنا بالتَّبعية، وقد آن الأوانُ لنعود إلى الحقيقة البسيطة، ونستعرض قُطْبي «الشرق والغرب»؛ الشرق ممثَّلًا في ثقافاتنا وحضاراتنا عبر عصور معيَّنة، أعطى هذا الغرب جوهَرَ ما أقام عليه بناء نهضته وانطلاقتها، وبخاصة في المجال العلمي.

الآن جاء دَوْر الغرب ليردَّ الجميل، أنا أريد أن أقول: إن فعل الحضارة بين الشرق والغرب بالمعنى العلمي الآن ليس فيه تابع ومتبوع، ليس فيه مَن يُحسُّ بالاسْتلاب وتناقص القَدْر والقيمة والضعف والاستخباء أمام عملاق ضخم. بالعكس نحن في منطق النِّدِّيَّة متساوون: أعطيناه ما أقام عليه نهضته، ويعطينا هو اليوم ما نفتِّح به أفكارنا، ونبني به جسورًا جديدة، ونحاول أن ننشئ ثقافة وحضارة جديدة.

أدعوكم إلى أن تتساءَلوا معي حول التُّراث، أي حول أنفسنا، قبلَ أن نشرَع في تقديم الإجابات.

* * *

الجلسة التاسعة:

الختامية